

معلم النباح

كامل كيلاني



مُعَلِّمُ النَّبَاحِ

مُعَلِّمُ النُّبَّاحِ

تأليف
كامل كيلاني



رقم إيداع ١٩٣١٩/٢٠١٢

تدمك: ٨ ١٠٩ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦/٨/٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + فاكس: ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

رسم الغلاف: ورود الصاوي.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2011 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٧

١٣

٢١

١- هَارِبٌ مِنَ الْمُطَارِدَةِ

٢- الْخُطَّةُ وَالْجَزَاءُ

٣- أَخْلَاقُ النَّاسِ

هَارِبٌ مِنَ الْمُطَارِدَةِ

(١) زَائِرُ اللَّيْلِ

كَانَ مِنْ بَيْنِ جِيرَانِنَا الْمُتَّصِلِينَ بِنَا، جَارٌ أَسْمُهُ: «أَبُو عَامِرٍ». اِسْتَهَرَ بِالنَّشَاطِ بَيْنَ التُّجَّارِ، وَكَثُرَتْ مِنْهُ فِي الْبِلَادِ الْأَسْفَارُ. أَصْبَحَ الْيَوْمَ بِفَضْلِ مَا تَوَافَرَ لَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ، مَيَسُورَ الْحَالِ. اِكْتَسَبَ مِنْ أَتْجَارِهِ، فِي أَسْفَارِهِ، دِرَايَةً وَاسِعَةً، وَخِبْرَةً جَامِعَةً. ظَلَّ وَقْفًا طَوِيلًا، وَهُوَ يَنَائِي بِنَفْسِهِ عَمَّا يَشِينُ التَّاجِرَ الْأَمِينِ. لَكِنَّهُ تَأَثَّرَ — أَحْيَرًا — بِمَا لِبَعْضِ التُّجَّارِ مِنْ حِيلٍ وَأَسَالِيْبٍ.

فَوَجِئْتُ بِهِ، ذَاتَ لَيْلَةٍ، يَطْرُقُ بَابِي، عَلَى غَيْرِ عَادَتِهِ. قَالَ لِي: «مَعْدِرَةٌ إِلَيْكَ، إِذْ طَرَقْتُ بِابِكَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ اللَّيْلُ. ضَاقَ صَدْرِي بِمَا أَنَا فِيهِ، فَجِئْتُ أَفْضِي إِلَيْكَ بِمَا أَعَانِيهِ.» دَهَشْتُ حِينَ تَبَيَّنْتُ حَالَ جَارِي، عَلَى خِلَافِ عَهْدِي بِهِ.

حَاوَلْتُ أَنْ أَهْدِيَّ مِنْ رَوْعِهِ، وَأَنْ أُسْرِيَ الِهَمَّ عَنْهُ. قُلْتُ لَهُ: «طَبِّ نَفْسًا، وَلَا تَسْتَسْلِمْ لِمَا يَضِيقُ بِهِ صَدْرُكَ. مَا مِنْ مُشْكَلَةٍ إِلَّا وَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ حَلٍّ، أَوْ مِنْ حُلُولِ إِحْكَ لِي كُلِّ مَا سَبَّبَ لَكَ الْفَلَقَ. لَا تَكْتُمُ عَنِّي شَيْئًا.»

(٢) حِيَلَةُ «رَأْسِ الْوَرَّةِ»

قَالَ «أَبُو عَامِرٍ»: «أَتَذْكُرُ يَا «جُحَا»، مَنِ اسْمُهُ: «أَبُو إِسْحَقَ»؟
قُلْتُ: «أَتَعْنِي صَاحِبِنَا الَّذِي كَانَ لَقَبُهُ: «رَأْسُ الْوَرَّةِ»؟»
قال: «مَا أَذْكَاءُ! أَنَا مَا عَنَيْتُ — يَا «جُحَا» — سِوَاهُ.»

مُعَلِّمُ النَّبَاحِ

قُلْتُ: «لَيْسَ فِي بَلَدِنَا مَنْ عَرَفَ «رَأْسَ الْوَزَّةِ»، ثُمَّ يَنْسَاهُ. لَقَدْ أَسْفَنَّا لَهُ أَشَدَّ الْأَسْفِ،
وَسَأَلْنَا اللَّهَ أَنْ يُلَطِّفَ بِحَالِهِ.»

قال «أَبُو عَامِرٍ»: «لَعَلَّكَ تَقْصِدُ مَا ذَاعَ مِنْ أَنَّهُ أُصِيبَ بِجُنُونٍ. هَذِهِ — فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ —
شَائِعَةٌ، مَلَأَتْ الْأَسْمَاعَ، وَعَمَّتِ الْبِقَاعَ. مِثْلَكَ لَا يُصَدِّقُ فِي شَأْنِ «رَأْسِ الْوَزَّةِ»، أَنْ يَخْتَلِطَ
عَقْلُهُ. أَمَّا أَنَّهُ تَظَاهَرَ بِالْجُنُونِ، أَمَامَ النَّاسِ، فَهَذَا مَا حَدَثَ مِنْهُ. إِنَّهُ لَجَأَ إِلَى ادِّعَاءِ الْجُنُونِ،
لِكَيْ يَقْضَى فِي نَفْسِهِ حَاجَةً! سِرٌّ ذَلِكَ أَنَّ ظُرُوفًا دَعَتْهُ إِلَى اقْتِرَاضِ الْأَمْوَالِ مِنْ عَارِفِيهِ.
أَصَابَتْهُ أَحْدَاثٌ لَمْ يَسْتَطِعْ مَعَهَا أَنْ يَرُدَّ مِنَ الدُّيُونِ مَا عَلَيْهِ. لَمْ يَرِ بُدًّا، لِلْهَرَبِ مِنْ مُلَاحَقَةِ
الدَّائِنِينَ، مِنْ ادِّعَاءِ الْجُنُونِ. كَانَ بَارِعًا، كُلَّ الْبَرَاعَةِ، فِي التِّزَامِ التَّصَرُّفِ الدَّالِّ عَلَى خَبَالِهِ.
لَمْ يَكُنْ هَذَا بِمُسْتَكْتَرٍ عَلَى «رَأْسِ الْوَزَّةِ» فِي ذِكَائِهِ. لَمْ تَلْبَثْ حِيلَتُهُ أَنْ جَارَتْ عَلَى كُلِّ مَنْ
اتَّصَلَ بِهِ.»



(٣) مُحَاصِرَةُ الدَّائِنِينَ

سَأَلْتُ «أَبَا عَامِرٍ» صَاحِبِي، وَقَدْ بَدَأَ تَطَلُّعِي لِمَا سَيَحْكِيهِ: «أُصَارِحُكَ — يَا «أَبَا عَامِرٍ» — بِمَا يَدُورُ فِي نَفْسِي الْآنَ. إِنَّ مَا أَخْبَرْتَنِي بِهِ فِي شَأْنِ «رَأْسِ الْوَرَّةِ»: حَدِيثٌ مُجْمَلٌ. لَاشْكَ أَنَّ وِرَاءَكَ — مِنْ خَيْرِ هَذَا الرَّجُلِ — مَا وِرَاءَكَ. إِذَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْكَ مَانِعٌ، فَلَا تُخْفِ عَنِّي أَيَّ شَيْءٍ».

قَالَ «أَبُو عَامِرٍ»: «أَنْتَ بِخَبْرَتِكَ وَفِطْنَتِكَ تَسْتَشْفُ مَا يَخْفَى. سَأُفْصِلُ لَكَ — الْآنَ — مَا سَبَقَ أَنْ أَجْمَلْتُهُ مِنْ حَدِيثٍ. لَمَّا أَثْقَلَتِ الدُّيُونُ «رَأْسَ الْوَرَّةِ»، عَزَّتْ عَلَيْهِ مُوَاجَهَةُ دَائِنِيهِ. كَانَ يَشْعُرُ بِأَشَدِّ الْخَجَلِ وَالْحَيَاءِ، كُلَّمَا لَقِيَ أَحَدَ مُطَالِبِيهِ. اتَّخَذَ وَسَائِلَ مُخْتَلَفَةً، لِكَيْ يَتَجَنَّبَ رُؤْيَتَهُ لَهُمْ، وَتَعَقُّبَهُمْ لَهُ. مِمَّا حَرَصَ عَلَيْهِ، أَنَّهُ لَا يُغَادِرُ بَيْتَهُ إِلَّا فِي جُنْحِ اللَّيْلِ. اِكْتَشَفَ الدَّائِنُونَ حِيلَتَهُ، فَكَانُوا يَسْهَرُونَ لِمُلَاقَاتِهِ، وَيَتَرَصَّدُونَ لَهُ. أَنْعَرِفُ — يَا «جُحَا» — مَاذَا اتَّخَذَ أَحْيَرًا، إِزَاءَ ذَلِكَ، مِنْ وَسِيلَةٍ؟ أَتَرَى أَنَّ يَخْتَبِئُ عَنِ الْعُيُونِ فِي دَارِهِ، وَيُعْلِقُ بَابَهُ عَلَيْهِ».

(٤) عَهْدٌ وَاتِّفَاقٌ

قُلْتُ لَهُ: «فِيمَ أَهْتِمَامِكَ بِ«رَأْسِ الْوَرَّةِ»، عَلَى هَذَا الْوَجْهِ؟ لَا رَيْبَ فِي أَنَّ لَكَ صِلَةً شَخْصِيَّةً بِهَذَا الَّذِي تَحْكِيهِ!»

قَالَ «أَبُو عَامِرٍ»: «لَمْ يَنْتَهِ حَدِيثِي مَعَكَ. سَأُوَاصِلُ الْقِصَّةَ. كُنْتُ بَيْنَ أَوْلِيكَ الَّذِيْنَ قَصَدَهُمْ «رَأْسُ الْوَرَّةِ»، لِيَقْرَضُوهُ. أَرَدْتُ تَفْرِيجَ كُرْبَتِهِ، فَلَمْ أَتَرَدَّدْ فِي تَسْلِيْفِهِ مِائَةَ دِينَارٍ. لَمَّا رَأَيْتُ إِمْعَانَهُ فِي أَحْتِجَابِهِ، شَكَّكْتُ فِي حَقِيقَةِ غِيَابِهِ. دَعَانِي هَذَا الشُّكُّ إِلَى أَنْ أَتَابَعَ أَمْرَهُ، حَتَّى كَشَفْتُ سِرَّهُ. لَمَّا رَأَيْتُ، عَبَسَ فِي وَجْهِهِ، وَظَهَرَتِ الْحَيْرَةُ عَلَى وَجْهِهِ. مَا زِلْتُ أُونِسُهُ بِالْكَلَامِ، حَتَّى زَالَتْ وَحْشَتُهُ وَأَطْمَأَنَّ قَلْبُهُ. تَحَدَّثْتُ مَعَهُ فِي شَأْنِ دَائِنِيهِ، وَمَاذَا هُوَ صَانِعٌ الْآنَ فِيهِ؟ عَرَضْتُ عَلَيْهِ فِكْرَةً، تَتِيحُ لَهُ الْفِكَاكُ مِنْ كُلِّ مَضَائِقِيهِ. إِشْتَرَطْتُ عَلَيْهِ أَنْ يَرُدَّ لِي دِينِي، إِذَا نَجَحَتْ مَعَهُ فِكْرَتِي. تَهَلَّلَ وَجْهُهُ، وَرَاجَعَهُ أُنْسُهُ، وَقَالَ، وَهُوَ يَهْزُؤُ كَتِفِي بِيَدَيْهِ: قَسَمًا، لَوْ نَجَحَتْ فِكْرَتُكَ، لَرَدَدْتُ عَلَيْكَ ضِعْفَ دَيْنِكَ عَلَيَّ!»

(٥) إِقْتِرَاحُ حَبِيبُ

قُلْتُ: «مَا فَكَّرْتِكَ الَّتِي أَرَدْتَ بِهَا أَكْلَ الْأَمْوَالِ بِالْبَاطِلِ؟»
 تَجَهَّمُ وَجْهَ «أَبِي عَامِرٍ»، وَقَالَ: «أَنَا أَقْصُ عَلَيْكَ، وَالرَّأْيُ لَكَ. جَعَلْتُ أُشْرِحُ لِرَأْسِ
 الْوَزَّةِ» بِالنَّفْصِيلِ: مَا هُوَ صَانِعٌ؟ قُلْتُ لَهُ: «مَا يُصْبِحُ الصَّبَاحُ، حَتَّى تَرْتَدِيَ أَثْمَنَ ثِيَابِكَ.
 عَلَيْكَ أَنْ تَفْتَحَ بَابَ دَارِكَ، وَتَهَيِّئِ الْمَجْلِسَ لِاسْتِقْبَالِ زُورِكَ. خُذْ مَكَانَكَ فِي صَدْرِ مَجْلِسِكَ،
 مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَةٍ خَاصَّةٍ بِكَ. تَكَلَّفِ الْوَقَارَ فِيمَا يَبْدُو عَلَيْكَ، وَالْجِدَّ فِيمَا يَظْهَرُ مِنْكَ. إِذَا قَدِمَ
 أَحَدُ النَّاسِ، فَلَا تَعْبَأْ بِهِ، وَلَا تَلْقُ بِالْأَلِيَّةِ. إِذَا حَيَّاكَ مِنْهُمْ أَحَدٌ بِتَحِيَّةٍ، فَيَاكَ أَنْ تُجِيبَ بِغَيْرِ
 النَّبَاحِ. إِذَا أَظْهَرَ لَكَ الْقَادِمُ دَهْشَتَهُ، فَكَزِّرْ نُبَاحَكَ ثَانِيَةً وَثَالِثَةً. إِذَا تَمَادَى لَكَ فِي الْإِلْحَاحِ،
 تَمَادَيْتَ لَهُ فِي الصِّيَاحِ. إِتَّخِذْ هَذَا النَّبَاحَ — مُنْذُ الْغَدِ — شِعَارًا لَكَ، وَعَلَامَةً عَلَيْكَ. لِيَكُنْ
 عَمَلُكَ — مُنْذُ الْآنَ إِلَى الْغَدِ — التَّفَرُّعَ لِتَدْرِيبِ صَوْتِكَ. حَاولِ، مَا اسْتَطَعْتَ سَبِيلًا، أَنْ تُقَلِّدَ
 نَبْرَاتِ مَنْ يَنْبَحُ. قُلْ: «هُوَ. هُو.» — يَا «أَبَا إِسْحَاقَ» — وَلَا تَتْرِكِ الْعَوَاءَ. أَجِبْ بِهَذَا النَّبَاحِ
 كُلَّ قَادِمٍ عَلَيْكَ، دَائِنٌ أَوْ غَيْرِ دَائِنٍ.»



(٦) التَّمَادِي فِي النَّبَاحِ

قُلْتُ لَهُ: «أَيُّظَلُّ «رَأْسُ الْوَرَّةِ» نَابِحًا مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ؟»
 قَالَ «أَبُو عَامِرٍ»: «شَرَطْتُ عَلَيْهِ أَلَّا يَرْتَفِعَ بِغَيْرِ النَّبَاحِ صَوْتُهُ: يَنْبُحُ مَنْ يُلَاقِيهِ، مَنْ
 أَخْلَصَ عَارِفِيهِ، وَأَصْدَقَ مُحِبِّيهِ، وَكُلُّ دَائِنِيهِ. قُلْتُ لَهُ: «لَنْ يَلْبِثَ الدَّائِنُونَ أَنْ يَضْجَرُوا بِكَ،
 وَيَبْأَسُوا مِنْكَ. سَيَرَفَعُونَ شَكْوَاهُمْ — فِي آخِرِ الْأَمْرِ — إِلَى وَالِي الْمَدِينَةِ. لَا تَتَخَلَّ — بِحَالٍ —
 عَمَّا رَسَمْتَهُ لَكَ، وَشَرَطْتَهُ عَلَيْكَ. إِذَا مَثَلَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَعَلَيْكَ الْإِعْتِصَامُ بِالصَّمْتِ، بَادِيءَ بَدْءٍ.
 حَذَارٍ — يَا «رَأْسُ الْوَرَّةِ» — أَنْ يَلْفِظَ لِسَانُكَ أَمَامَهُ مِنْ قَوْلٍ. إِذَا أَنْتَ بَدَأْتَ الْوَالِيَّ بِسُؤَالِكَ،
 فَلَا تَرُدَّ عَلَيْهِ بِجَوَابِكَ. سَيَرْتَابُ فِكْرُهُ فِي حَقِيقَةِ شَأْنِكَ: أَمَعَانِدُ أَنْتَ، أَمْ أَخْرَسُ؟ إِذَا اسْتَمَرَ
 فِي سُؤَالِكَ، أَطَلَقْتَ لَهُ نِبَاحَكَ، وَتَمَادَيْتَ فِيهِ. إِضْرَارُكَ عَلَى النَّبَاحِ سَيُدُلُّ الْوَالِيَّ عَلَى أَنَّكَ فِيهِ
 عَيْرٌ مُتَّصِنٌ. سَيَكْفُ عَنْ حِوَارِكَ، وَسَيَقْتِنِعُ بِأَنَّكَ قَدْ أَصَابَكَ الْجُنُونُ. سَيَضْطَرُّهُ ذَلِكَ إِلَى
 إِعْفَاتِكَ مِنْ دَيْنِكَ، وَإِطْلَاقِ سَرَاحِكَ.»

الفصل الثاني

الْخُطَّةُ وَالْجَزَاءُ

(١) تَأْكِيدُ الْوَعْدِ

عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، أَمَسَكَ «أَبُو عَامِرٍ» عَنِ مُوَاصَلَةِ الْحَدِيثِ.

قُلْتُ لَهُ: «مَاذَا بَعْدَ ذَلِكَ، مِنْ أَمْرِ «أَبِي إِسْحَقَ»؟»

قال «أَبُو عَامِرٍ»: «لَقَدْ وَعَى النَّصِيحَةَ، وَأَحْسَنَ فَهَمَّ الْإِقْتِرَاحِ. لَمَّا فَرَعْتُ مِنْ عَرْضِ مَا أَقْتَرَحْتُهُ عَلَيْهِ، أَجْزَلَ شُكْرَهُ لِي. فَعَلَ ذَلِكَ، جِزَاءً إِنْجَائِهِ مِنْ وَرْطَتِهِ، وَخَلَاصِهِ مِنْ كُرْبَتِهِ. كَرَّرَ تَأْكِيدَهُ أَنَّهُ سَيُنْجِزُ وَعْدَهُ بِإِدَاءِ مَا تَوَافَقْنَا عَلَيْهِ. مَا جَاءَ الْعَدُوَّ، حَتَّى أَنْفَذَ «أَبُو إِسْحَقَ» الْخُطَّةَ كَامِلَةً بِحَدَقٍ. هَيَّا الدَّارَ أَجْمَلَ تَهْيِئَةً، لِاسْتِقْبَالِ مَنْ يَفْدُمُونَ لِلزِّيَارَةِ. تَجَلَّى «رَأْسُ الْوَزَّةِ» وَهُوَ فِي أَبِي حُلَّةٍ، وَأَرْوَعَ زِينَةٍ. أَعَدَّ ذَلِكَ كُلَّهُ، قَبْلَ أَنْ يَفْتَحَ لِلْوَافِدِينَ عَلَيْهِ دَارَهُ. أَطْلَقَ مِنْ حَلِقِهِ نَبْحَةً بَعْدَ نَبْحِهِ، تَرَدَّدَ صَدَاها حَوْلَهُ. عَجَبَ الْجِيرَانُ لِسَمَاعِهِمْ نُبَاحَ كَلْبٍ مِنْ دَارِ «أَبِي إِسْحَقَ». لَمَّا فَتِحَ بَابَ الدَّارِ، تَوَافَدَ لِلدُّخُولِ فِيهِ مُحْتَلِفُ الزُّوَارِ. كَانَ رُدُّ «رَأْسِ الْوَزَّةِ» عَلَى تَحِيَّاتِهِمْ، نُبَاحًا بَعْدَ نُبَاحٍ.»

(٢) مُحَاوَلَاتُ الدَّائِنِينَ

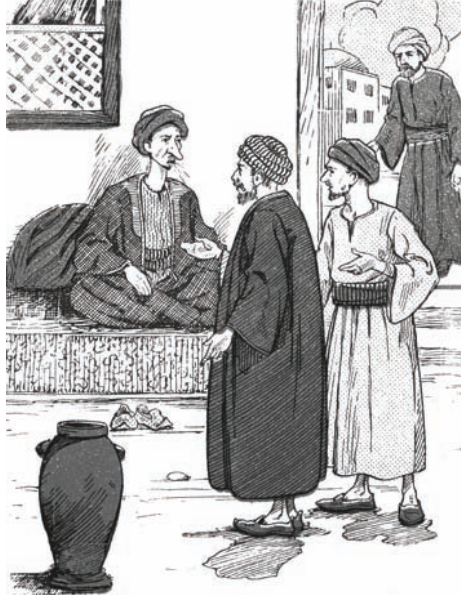
سَمِعَ الدَّائِنُونَ بِأَنَّ «رَأْسَ الْوَزَّةِ» قَدْ ظَهَرَ بَعْدَ الْإِخْتِفَاءِ. اسْتَبَشَرُوا بِظُهُورِهِ، وَتَوَقَّعُوا أَنْ يَصِلُوا إِلَى مُبْتَغَاهُمْ مِنْهُ. فَسَرُّوا ذَلِكَ بِأَنَّهُ دَبَّرَ أَمْرَهُ، وَجَمَعَ مِنَ الْأَمَالِ مَا عَلَيْهِ.

حَتَّى كُلِّ مِنْهُمْ إِلَيْهِ خُطَاهُ، عَسَى أَنْ يُحَقِّقَ لَدَيْهِ مُنَاهُ. لَمْ يَنْتَبِشْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَطْفَرَّ

— فِي لِقَائِهِ لَهُ — بِجَدْوَى. كَانَ «أَبُو إِسْحَقَ» لَا يَسْتَقْبِلُ أَحَدَهُمْ بِغَيْرِ نُبَاحِهِ الْمُوْصُولِ.

مُعَلِّمُ النَّبَاحِ

اِخْتَلَفَ الدَّائِنُونَ — فِيمَا بَيْنَهُمْ — فِي مُوَجَّهَةِ ذَلِكَ النَّبَاحِ الْعَجِيبِ. بَعْضُهُمْ كَانَ يَضِيقُ بِالْعَوَاءِ ذَرْعًا، فَيُوسِعُ صَاحِبَهُ تَأْنِيْبًا وَتَعْنِيْفًا. مِنْهُمْ مَنْ حَرَصَ عَلَى أَنْ يُلِيْنَ لَهُ جَانِبُهُ، عَسَى أَنْ يَسْتَمِيْلَهُ. تَسَاوَى عِنْدَهُ مَنْ أَسْرَفَ فِي تَعْنِيْفِهِ، وَمَنْ تَلَطَّفَ بِهِ. لَمْ يَرْجِعْ عَنِ مَسْلِكِهِ تَصْدِيْقًا لَوْعْدٍ، أَوْ خَوْفًا مِنْ وَعِيْدٍ. تَنَارَعَ الدَّائِنُونَ فِي شَأْنِ «رَأْسِ الْوَزَّةِ»، وَمَا بَدَأَ مِنْهُ. بَيْنَ الدَّائِنِيْنَ مَنْ أَسْتَيْقَنَ أَنَّهُ مُتَكَلِّفٌ مُنْصَعِّجٌ خَدَّاعٌ. قُلْتُ مِنْهُمْ تَوَهَّمْتُ أَنَّ الرَّجُلَ أَصَابَتْهُ عِلَّةٌ مَسَحَتْ صَوْتَهُ. خُلَاصَةُ الْأَمْرِ أَنَّ جَمَاعَةَ الدَّائِنِيْنَ بَاءُوا بِالْحَيَبَةِ وَالْإِخْفَاقِ. لَمْ تُجِدْ فِي رَدِّ أَمْوَالِهِمْ حِيْلَةً، وَلَمْ تُفِدْ مِنْهُمْ وَسِيْلَةً.



(٣) بَيْنَ يَدَيِ الْوَالِي

قُلْتُ لَهُ: «لَا بُدَّ أَنْ قِصَّةَ «رَأْسِ الْوَزَّةِ» لَمْ تَنْتَهَ.»

الْخُطَّةُ وَالْجَزَاءُ

قال «أبو عامر»: «كَيْفَ تَنْتَهِي، وَهُنَاكَ دَائِنُونَ، بِحَقِّهِمْ يُطَالِبُونَ؟ أَنْتَ تُوْمِنُ بِالْحِكْمَةِ الْقَائِلَةِ: «لَا يَضِيْعُ حَقٌّ وَرَاءَهُ مُطَالِبٌ». لِيَتَسَّعَ صَدْرُكَ لِمَا أَنَا قَاصُّهُ عَلَيْكَ، أَسْتِكْمَلًا لِحَدِيثِي مَعَكَ. الدَّائِنُونَ عَجِبُوا مِنْ مَسْخِ صَوْتِ إِنْسَانٍ، لِيَصِيرَ صَوْتٌ كَلْبٍ.»

تَحَسَّرُوا عَلَى مَا فَقَدُوهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ عِنْدَ الرَّجُلِ الْمَمْسُوحِ. أَجْمَعُوا رَأْيَهُمْ — أَخِيرًا — أَنْ يَرْفَعُوا الْأَمْرَ إِلَى وَالِي الْمَدِينَةِ. قَدَّرُوا أَنَّهُ مُسْتَطِيعٌ، بِمَكَانَتِهِ، أَنْ يَصُونَ مَا لَهُمْ مِنْ حُقُوقٍ. وَقَفَ وَكَيْلُ الدَّائِنِينَ أَمَامَ الْوَالِي، يَعْرِضُ عَلَيْهِ أَحْدَاثَ الْقِصَّةِ. إِشْتَدَّ أَرْتِيَابُهُ فِيمَا أَخْبَرَهُ بِهِ مِنْ شَأْنِ الْإِنْسَانِ النَّابِحِ.

أَقْسَمَ الْوَكِيلُ إِنَّهُ لَصَادِقٌ، وَمَا كَانَ لِيَكْذِبَ عَلَى الْوَالِي. طَلَبَ الْوَالِي مِنْ أَعْوَانِهِ، أَنْ يُخْضِرُوا لَهُ «رَأْسَ الْوَرَّةِ». قَدَّمُوهُ إِلَيْهِ، فَرَأَهُ إِنْسَانًا سَوِيًّا فِي شَكْلِهِ، وَمَلَامِحِهِ، وَرِيئِهِ. سَأَلَهُ: «أَخْبِرْنِي مَاذَا مَنَعَكَ مِنْ أَنْ تَرُدَّ أَمْوَالَ الدَّائِنِينَ؟»

صَمَتَ «رَأْسُ الْوَرَّةِ»، فَزَجَرَهُ الْوَالِي، قَائِلًا: «هَلْ أَصَابَكَ الْخَرَسُ؟»
كَانَتْ إِجَابَةُ الرَّجُلِ عَنْ ذَلِكَ، أَنَّهُ أَطْلَقَ مِنْ حَلْقِهِ النَّبَاحَ.



(٤) عَاقِبَةُ النُّبَاحِ

ضَجَرَ الْوَالِي، أَشَدَّ الضَّجْرِ، مِنْ تَصْرُفٍ، «رَأْسِ الْوَزَّةِ» مَعَهُ. قَالَ لَهُ: «غَابَ عَنْكَ أَنَّكَ فِي حَضْرَةٍ وَالِ لَهُ مَهَابَتُهُ. كَيْفَ سَوَّلْتَ لَكَ نَفْسُكَ أَنْ تَتَّخِذَ أَمَامِي هَذِهِ الْأَلْعِيبَ؟ إِنَّكَ تَخْدَعُ مَنْ أَقْرَضُوكَ أَمْوَالَهُمْ، بِإِصْطِنَاعِ نُبَاحِكَ الْمُنْكَرِ. كَيْفَ سَاعَ لَكَ فِعْلُ ذَلِكَ فِي مَجْلِسِي، دُونَ حَيَاءٍ؟! أَتَجْهَلُ أَنِّي فِي مُسْتَطَاعِي أَنْ أُعَاقِبَكَ، وَأَنْ أُنْكَلَّ بِكَ؟»

أَصَرَ «رَأْسِ الْوَزَّةِ» عَلَى أَنْ يَكُونَ جَوَابُهُ: النُّبَاحِ، لَا غَيْرُ. أَدْهَشَ الْوَالِيَّ أَنَّ ذَلِكَ النُّبَاحَ كَأَنَّهُ صَوَّتُ الْكِلَابِ الْعَاوِيَاتِ! عَبَّرَ الْوَالِيُّ عَنِ نَوْرَتِهِ وَغَضَبِهِ بِمُخْتَلَفِ اللَّوَانِ الْوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ. أَمْضَى وَقْتًا طَوِيلًا، يُحَاوِلُ أَنْ يَدْفَعَ «رَأْسِ الْوَزَّةِ» إِلَى الْكَلَامِ. اسْتَعْمَلَ الْحِيلَ الْمُتَعَدِّدَةَ مَعَهُ، لِيَكْشِفَ مَا يَصْطَنِعُهُ مِنَ الْخِدَاعِ: تَارَةً يَقْسُو عَلَيْهِ، وَيَذَكِّرُهُ بِمَا سَوْفَ يُلْحِقُهُ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ. حِينَ لَا يُجِدِي ذَلِكَ، يَتَّخِذُ أُسْلُوبَ الْمُلَايَنَةِ وَالْمُلَاطَفَةِ وَالتَّرْغِيبِ. مِمَّا لَجَأَ إِلَيْهِ: وَعَدُّهُ بِأَنْ يَكُونَ عَوْنًا لَهُ عَلَى آدَاءِ دِيُونِهِ. لَمَّا أَخْفَقَتْ حِيلَةُ الْوَالِيِّ مَعَ «رَأْسِ الْوَزَّةِ» أَمَرَ بِحَبْسِهِ. وَكَلَّ بِهِ حَارِسًا يَتَّقَصَى خَبْرَهُ، لِيَتَبَيَّنَ أَمْرَهُ، وَيَعْرِفَ سِرَّهُ.



(٥) إِطْلَاقُ السَّرَاحِ

دَخَلَ «رَأْسُ الْوَزَّةِ» السَّجْنَ، وَلَمْ تَبْدُ عَلَيْهِ أَيَّةُ مَبَلَاةٍ. ظَهَرَ عَلَيْهِ الْإِرْتِيَاحُ إِلَى خَلَاصِهِ مِنْ أَنْ يُطَارِدَهُ دَائِنُوهُ. لَمْ يَقْصُرْ حَارِسُهُ فِي التَّضْيِيقِ عَلَيْهِ، وَمُلَاحَظَةِ حَرَكَاتِهِ وَتَصَرُّفَاتِهِ. كَانَ «رَأْسُ الْوَزَّةِ» أَذْكَى مِنْ أَنْ تَفُوتَهُ تِلْكَ الرِّقَابَةُ عَلَيْهِ. تَعَمَّدَ أَنْ يَقْسِمَ وَقْتَهُ بَيْنَ التَّبَاجِ الْعَالِي، وَالْهَرِيرِ الْخَافِتِ. كَانَ كَأَنَّما هُوَ فِي نُبَاحِهِ يَسْتَعِيثُ، وَفِي هَرِيرِهِ يَتَوَجَّعُ. نَقَلَ الْحَارِسُ إِلَى الْوَالِي حَالَ «رَأْسِ الْوَزَّةِ»، كَمَا عَهَدَهَا مِنْهُ. شَهِدَ الْحَارِسُ بِأَنَّ الرَّجُلَ الْحَبِيسَ لَا يَنْطَوِي أَمْرُهُ عَلَى خِدَاعٍ.

قَالَ الْوَالِي فِي نَفْسِهِ: «حَبَسَ الرَّجُلَ — إِذَنْ — ظُلْمٌ مُبِينٌ». اسْتَدْعَاهُ إِلَيْهِ، وَتَرَفَّقَ بِهِ، وَأَخْبَرَهُ بِأَنَّهُ سَيُحْلَى سَبِيلَهُ. لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى إِطْلَاقِ سَرَاحِهِ، بَلْ أَرْصَدَ الْعُيُونَ لِمُرَاقَبَتِهِ. كَمَنَّ الرُّقَبَاءُ حَوْلَ دَارِهِ، وَتَبِعُوا ظِلَّهُ فِي غَدَوَاتِهِ وَرَوْحَاتِهِ. لَمْ يَأْخُذُوا عَلَيْهِ أَيَّ شَيْءٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مُتَصَنِّعٌ كَذُوبٌ. رَتَى الْوَالِي لِحَالِهِ، وَأَيَّقَنَ أَنَّهُ مَخْبَلٌ، أَصَابَهُ مَسٌّ مِنْ جُنُونٍ.

(٦) إِسْقَاطُ الدِّيُونِ

قُلْتُ لِـ«أَبِي عَامِرٍ»: «لَا بُدَّ أَنْ «رَأْسُ الْوَزَّةِ» اسْتَرَاحَ رَأْسَهُ!»
أَجَابَ بِقَوْلِهِ: «كَيْفَ يَسْتَرِيحُ لَهُ رَأْسٌ، وَالِدَائِنُونَ حَوَالِيهِ؟»
قُلْتُ لَهُ: «وَمَاذَا فِي وَسْعِهِمْ أَنْ يَصْنَعُوهُ، بَعْدَمَا كَانَ؟»
قَالَ لِي: «انْطَلَقَ عَدَدٌ مِنْهُمْ إِلَى الْوَالِي، يُعَاوِدُ الشُّكْوَى.»
قُلْتُ: «لَسْتُ أَدْرِي، مَاذَا فِي مَقْدُورِ الْوَالِي أَنْ يَفْعَلَ؟»
قَالَ: «صَرَخَ لِلشَّاكِينَ بِأَنَّهُ مُقْتَنِعٌ بِبِرَاءَةِ «رَأْسِ الْوَزَّةِ». قَالَ لَهُمْ: «لَيْسَ لِلرَّجُلِ يَدٌ فِيمَا نَابَهُ، فَبِأَيِّ ذَنْبٍ نَعَاقِبُهُ؟» أَصْدَرَ الْوَالِي أَحْيَرًا حُكْمَهُ الْقَاطِعَ بِإِسْقَاطِ دِيُونِ «رَأْسِ الْوَزَّةِ». تَسَامَعَ الدَائِنُونَ بِهَذَا الْحُكْمِ، فَاْمْتَلَأَتْ نَفُوسُهُمْ أَسْفًا وَحَسْرَةً. عَلِمَ «رَأْسُ الْوَزَّةِ» بِذَلِكَ، وَاطْمَأَنَّتْ نَفْسُهُ إِلَى يَأْسِ دَائِنِيهِ. أَحَذَّ يَعْذُو فِي الطَّرِيقِ وَيَرْوِحُ، يَأْمَنُ تَعَقُّبَهُمْ لَهُ، وَثَوْرَتَهُمْ عَلَيْهِ. بَعْضُ الدَائِنِينَ لَمْ يَكْفُوا عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ، كُلَّمَا رَأَوْهُ، بَارْتِيَابٍ. هُنَاكَ دَائِنُونَ

صَدَّقُوا أَنَّهُ مُصَابٌ بِالْحَبَالِ، وَأَنَّهُ جَدِيرٌ بِالرِّثَاءِ. هَكَذَا انْتَهَتْ الْحُصُومَةُ بَيْنَ «رَأْسِ الْوَزَّةِ»
وَدَائِنِيهِ، كَمَا شَاءَ!»

(٧) إِنْكَارُ الْجَمِيلِ

قُلْتُ لِـ«أَبِي عَامِرٍ»: «تَمَّتْ قِصَّةُ «رَأْسِ الْوَزَّةِ» وَدَائِنِيهِ، كَمَا رَسَمْتُمْ. مَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّهُ قَدْ
أُبْتَدَأَتْ الْآنَ الْقِصَّةُ الَّتِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ. الْحَقُّ أَنَّ الْقِصَّتَيْنِ هُمَا قِصَّةٌ وَاحِدَةٌ، لَهَا طَرَفَانِ
أَثْنَانِ. خَبَّرْنِي: مَاذَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الطَّرْفِ الْآخَرِ مِنَ الْقِصَّةِ؟»
أَمَسَكَ «أَبُو عَامِرٍ» عَنِ مُوَاصَلَةِ الْكَلَامِ، وَهُوَ مُطَّرِقٌ بِرَأْسِهِ. ظَلَّ وَاجِمًا، وَقَدْ بَدَتْ
عَلَى وَجْهِهِ أَمَارَاتُ الْحَسْرَةِ وَالْإِنْقِبَاضِ. رَفَعَ أَحْيَرًا رَأْسَهُ، كَأَنَّمَا أَفَاقَ مِنْ إِغْفَاءَةٍ مَلَكَتْ
عَيْنَيْهِ.

قَالَ لِي: «لَا بُدَّ أَنَّكَ تَعْنِي بِالطَّرْفِ الْآخَرِ: رَدُّ الْجَمِيلِ. أَلَسْتَ تَسْأَلُنِي: هَلْ رَدَّ لِي دَيْنِي
مُضَاعَفًا، كَمَا وَعَدَ؟ لَقَدْ تَخَلَّصْتُ، بِفِكْرَتِي الَّتِي أَمَلَيْتُهَا عَلَيْهِ، مِمَّا كَانَ يَحِقُّ بِهِ. لَمْ يَعْذُ
دَيْنُهُ هَمًّا لَهُ فِي لَيْلِيهِ، أَوْ ذُلًّا فِي نَهَارِهِ. يُوسِفُنِي إِخْبَارُكَ بِمَا أَظُنُّهُ لَا يَخْطُرُ لَكَ، أَوْ لِغَيْرِكَ،
بِبَالٍ.»

قُلْتُ لَهُ عِنْدَيْدِي: «سَأُقَاطِعُكَ، لِأُخْبِرَكَ أَنَا بِكُلِّ مَا جَرَى. لَا رَيْبَ أَنَّ تَلْمِيذَكَ النَّجِيبَ
وَعَى فِكْرَتِكَ، وَأَنْفَذَ خُطَّتَكَ. لَمْ يَجِدْ قَيْدَ أَنْمَلَةٍ عَمَّا رَسَمْتَهُ، لِإِغْتِيَالِ أَمْوَالِ دَائِنِيهِ. أَنْفَذَهَا
نَابِحًا فِي وَجْهِكَ، كُنْبَاحِهِ مَعَ مُطَالِبِيهِ، أَوْ مَعَ وَالِيهِ.»



(٨) يَأْسُ «أَبِي عَامِرٍ»

قَالَ «أَبُو عَامِرٍ» مُتَعَجِّبًا: «مَا أَبْرَعَ ذَكَاءَكَ، وَالْأَمَعَ فِطْنَتَكَ؟! لَمْ تَعُدْ الصَّوَابَ فِيمَا قُلْتَ، كَأَنَّكَ كُنْتَ مَعَنَا: رَأَيْتَ وَسَمِعْتِ! قَصَدْتُ دَارَ «رَأْسِ الْوِزَّةِ»، بَعْدَ أَنْجِلَاءِ عُمَّتِهِ، وَانْقِضَاءِ مِخْنَتِهِ. قُلْتُ فِي نَفْسِي: سَأَلْقَاهُ، بَعْدَ أَنْ هَدَأَ بَالَهُ، وَصَلَحَتْ حَالُهُ. عَزَمْتُ — فِي لِقَائِي لَهُ — أَنْ أُنْذِرَهُ عَهْدَهُ، وَأَسْتَنْجِرَهُ وَعْدَهُ. لَمْ يُخَالِجْنِي أَى شَكٍّ فِي أَنِّي مُلَاقٍ مِنْهُ مَا أَحْمَدُهُ لَهُ. مَا فَتَحْتُ فَمِي بِالسَّلَامِ، حَتَّى أَجَابَنِي بِالْعَوَاءِ بَدَلَ الْكَلَامِ. دَهَشْتُ أَشَدَّ الدَّهْشِ مِنْ غَرِيبِ جُرْأَتِهِ، وَإِعْرَاقِهِ فِي صِفَافَتِهِ. مَا خَطَرَ لِي قَطُّ بِبَالٍ، أَنْ يَلْقَانِي وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ. قُلْتُ لَهُ مُؤَنِّبًا: «لَكَ أَنْ تَصْطَبِعَ ذَلِكَ مَعَ أَيِّ صَاحِبٍ. أَمَّا أَنْ تُمَثِّلَهُ مَعِي، فَذَلِكَ: الْعَجَبُ الْعَاجِبُ، وَالرَّأْيُ الْخَائِبُ. دَعُ — أَيُّهَا الْأَحْمَقُ — ذَلِكَ النَّبَاحِ، وَكَلِّمْنِي كَمَا أَكَلِّمُكَ بِإِفْصَاحٍ». كَانَ يُشِيحُ بِوَجْهِهِ عَنِّي، كَيْ لَا تَفَعَّ عَلَى عَيْنِي عَيْنِي. كُلَّمَا كَرَّرْتُ لَهُ — فِي غَضَبٍ — قَوْلِي،

مُعَلِّمُ النَّبَاحِ

تَمَادَى فِي نُبَاحِهِ حَوْلِي. لَمْ يَنْتَهِ الْمَوْقِفُ، بَيْنَهُ وَبَيْنِي، إِلَى نَتِيجَةِ تَبَعْتُ عَلَى الْإِطْمِنَانِ.
غَادَرْتُ دَارَهُ حَيْرَانَ، لَا أَدْرِي: كَيْفَ أَتَصَرَّفُ فِي أَمْرِي الْآنَ؟»



الفصل الثالث

أَخْلَاقُ النَّاسِ

(١) خَصْلَةُ الْعَدْرِ

لَاذَ «أَبُو عَامِرٍ» بِالصَّمْتِ حِينًا، كَأَنَّمَا يُفَكِّرُ فِيمَا هُوَ صَانِعٌ. مَا شَهِدْتُهُ عَلَى أَسَارِيرِهِ يُوجِي بِأَنَّ مَرَاتَهُ تَكَادُ تَنْشُقُ غَيْطًا. عَبَّرَ ذَلِكَ عَنِ شُعُورِهِ بِوَبَالٍ تَصْرُفِهِ، وَأَنَّهُ يَكْتَوِي بِحَرِّ نَارِهِ.

قُلْتُ لَهُ: «خَلَّ عَنْكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ عَذَابِ التَّفَكِيرِ. لَنْ تَنْجُوَ مِنْ إِحْسَاسِكَ بِأَلْهَمٍ، إِلَّا بِأَنْ تَنْسَى مَا كَانَ. مَا فَقَدْتَهُ مِنَ الْمَالِ قَدْرٌ لَا يُسْتَهَانُ بِهِ، وَلَكِنْ: مَا الْعَمَلُ؟ لَنْ يُعَوِّضَكَ طُولُ التَّفَكِيرِ الْمَرِيرِ، عَمَّا أَصَابَكَ مِنَ الْخُسْرَانِ.»

قَالَ لِي: «أَكَانَ يَنْتَظِرُ مِنْ «رَأْسِ الْوَزَّةِ» هَذَا السُّلُوكِ؟! أَيْكُونُ مِنْهُ خُلُقُ الْعَدْرِ بِي، بَعْدَ كُلِّ مَا أَسَدَيْتُهُ لَهُ؟ أَهَذِهِ خَصْلَةٌ يَجُوزُ لِأَمْرِي عَاقِلٍ كَرِيمٍ أَنْ يَتَّصِفَ بِهَا؟»

قُلْتُ لَهُ: «لَمْ يَكُنْ مِنْهُ عَجَبًا سَلْبُ الْحُقُوقِ، وَلَوْمُ الْعُقُوقِ. إِعْلَمَنَّ أَنَّ صَاحِبَكَ «رَأْسَ الْوَزَّةِ» يَنْصِفُ بِأَخْلَاقِ بَعْضِ النَّاسِ. أَلْعَدْرُ خَصْلَةٌ سَيِّئَةٌ ذَمِيمَةٌ، وَلَكِنَّهَا فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ قَدِيمَةٌ. أَلْعَدْرُ لَوْنٌ مِنَ أَلْوَانِ الشَّرِّ، وَلَيْسَ الشَّرُّ فِي الدُّنْيَا بِسَرٍّ.»

(٢) أَنْتَ الْمَلُومُ

سَمِعَ «أَبُو عَامِرٍ» مَا أَفْضَيْتُ بِهِ إِلَيْهِ مِنْ تَوْضِيحٍ وَتَفْسِيرٍ. جَعَلَ يَهْرُ كَتَفَيْهِ، وَيَعْضُ عَلَى شَفَتَيْهِ، كَأَنَّهُ يَسْتَوْعِبُ مَا قُلْتُ. بَعْدَ وَقْتٍ قَلِيلٍ، وَجَدْتُهُ يُحَدِّقُ بِعَيْنَيْهِ فِي وَجْهِ بِشَدَّةٍ.

قَالَ يَسْأَلُنِي: «كَيْفَ اسْتَبَانَتَ لَكَ خَاتِمَةَ الْقِصَّةِ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ»؟ لَقَدْ أَوْضَحْتَ لِي تَفْصِيلَهَا، قَبْلَ أَنْ أَتَقَوَّهَ بِشَيْءٍ مِنْهَا!»

قُلْتُ لَهُ: «الْمُقَدِّمَاتُ تَدُلُّ مَنْ يُعْمَلُ عَقْلُهُ عَلَى النَّتَائِجِ. السُّلُوكُ الَّذِي أُتَّخَذَهُ «رَأْسُ الْوِزَّةِ» مَعَ دَائِنِيهِ، صَارَ طَبِيعَةً فِيهِ. هَذَا التَّصَرُّفُ الْمُنْكَرُ الْعَجِيبُ، لَكَ مِنْهُ — يَا أَخِي — نَصِيبٌ. كَيْفَ تَعْجَبُ مِنْهُ فِيمَا صَنَعَ، وَأَنْتَ أَجْدَرُ مِنْهُ بِالْعَجَبِ؟ لَيْسَ عَلَيَّ «رَأْسُ الْوِزَّةِ» أَيُّ ذَنْبٍ، فَلَا يَكُنْ مِنْكَ عَتْبٌ. مَاذَا يَرِيكَ فِيمَا جَرَى مِنْ إِخْلَافِهِ لَوَعْدِهِ لَكَ، وَعَهْدِهِ مَعَكَ؟ أَلَمْ تَشُقْ لَهُ طَرِيقَ غَوَايَةِ، وَهَدَيْتَهُ إِلَيْهِ شَرَّ هِدَايَةٍ؟ بِحَقِّكَ: مَاذَا تُنْكَرُ أَنْتَ مِنْ عَمَلِهِ؟ وَمَا وَجْهُ شَكْوَاكَ مِنْهُ؟ لَوْ تَدَبَّرْتَ أَمْرَكَ فِي تَعَقُّلٍ، لَمَا غَضِبْتَ عَلَيْهِ فِيمَا يَعْمَلُ.»

(٣) عَاقِبَةُ السُّوءِ

كَانَ هَذَا مُجْمَلُ حَدِيثِي مَعَ «أَبِي عَامِرٍ»، لِأَهْوَنَ عَلَيْهِ مَا بِهِ. رَأَيْتُ أَنَّ أَتَابِعَ الْحَدِيثَ عَلَى هَذَا النَّحْوِ، لِكَيْ أُفْنِعَهُ.

قُلْتُ: «صَارِحِنِي، يَا «أَبَا عَامِرٍ»: هَلْ تَسْتَطِيعُ انْكَارَ مَسْئُولِيَّتِكَ؟ أَلَمْ يَكُنْ مِنْكَ تَعْلِيمٌ «رَأْسُ الْوِزَّةِ» مَا حَفِظَهُ وَوَعَاهُ؟ أَلَمْ يَتَلَقَّنِ الدَّرْسَ الَّذِي يَعْرِفُ بِهِ كَيْفَ يَحْتَالُ وَيَعْتَالُ؟ لَمْ يَزِدْ — فِيمَا التَّرَمَّ — عَلَيَّ أَنْ وَثِقَ بِكَ، وَأَنْ أَطَاعَكَ. لَقَدْ حَسَنْتَ لَهُ أَنْ يَحْدَعَ النَّاسَ، وَأَنْتَ وَاحِدٌ مِنَ النَّاسِ. حَسْبُكَ مِنْهُ صِدْقُ أَمَانَتِهِ فِي تَطْبِيقِ الْمَنْهَجِ، وَاتِّبَاعِ الْقِيَاسِ. كَيْفَ تُرِيدُهُ إِذَنْ عَلَيَّ أَنْ تَنْفَرِدَ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ بِوَفَائِهِ؟! أَلَيْسَ مَا وَعَدَكَ بِهِ، وَعَاهَدَكَ عَلَيْهِ، حَقًّا كَسَائِرِ الْحُقُوقِ؟ لِمَاذَا يَخْصُ حَقِّكَ وَحَدَّكَ بِالْوَفَاءِ، وَحَقَّ سَائِرِ النَّاسِ بِالْعُقُوقِ؟! مَا أَجْدَرَكَ — يَا صَاحِبِي — بِأَنْ تَشْكُرَ صَاحِبَكَ، بَدَلًا مِنْ مَلَامَتِهِ. أَنْتَ الَّذِي جَعَلْتَهُ يُقَدِّمُ عَلَيَّ الْغَدْرَ وَالْإِحْتِيَالَ، وَاغْتِيَالَ الْأَمْوَالِ. لَوْ أَنَّكَ زَيَّنْتَ لَهُ الْوَفَاءَ، لَكَانَ لَكَ مِنْهُ أَحْسَنُ الْجَزَاءِ.»

(٤) الذُّنْبُ وَالْعَنَمُ

أَحَسَّ «أَبُو عَامِرٍ» بِأَنَّهُ شَرِيكُ «رَأْسِ الْوِزَّةِ» فِي سُوءِ عَمَلِهِ.

قُلْتُ لَهُ: «بَقِيَ أَنْ تَصْدُقَنِي الْقَوْلَ فِيمَا أَعْرِضُهُ عَلَيْكَ. أَكُنْتَ تَشْكُو عَدْرَ «رَأْسِ الْوِزَّةِ» بِالنَّاسِ، لَوْ لَمْ يَعْدِرْ بِكَ؟ أَكُنْتَ تَنْقَمُ مِنْهُ لَوْ أَدَّى دَيْنَكَ وَحَدَّكَ، وَاعْتَالَ دِيُونَ غَيْرِكَ؟

هَبَكَ سَمِعْتَ أَنَّ رَجُلًا هَدَى إِلَى الْغَنَمِ أَحَدَ الذَّنَابِ. هَذَا الرَّجُلُ أَحَذَ عَلَى الذَّنْبِ عَهْدًا أَلَّا يَنَالَ غَنَمَهُ بِمَكْرُوهِهِ. أُتْرَى الذَّنْبُ كَانَ يُعْفَى غَنَمَ الرَّجُلِ مِنَ الْعُدْوَانِ عَلَيْهَا؟ قِصَّةُ عَهْدِ الذَّنْبِ وَالرَّجُلِ، هِيَ قِصَّةُ عَهْدِ «رَأْسِ الْوَزَّةِ» مَعَكَ. حَقَّقِ النَّظَرَ فِي مِرَاتِكَ: عَلَّمْتَ «رَأْسَ الْوَزَّةِ» الْغَوَايَةَ، فَغَوَى. زَيَّنْتَ لَهُ حِيلَةَ الْعَوَاءِ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَحْتَالَ بِهَا، وَعَوَى. اسْتَبَاحَ مِنَ الْحُقُوقِ مَا لَا يُسْتَبَاحُ، بِمَا أَتَقَنَّ مِنَ النَّبَاحِ. لَيْسَ هَذَا أَوَّلَ مَنْ نَبَحَ، فَكَسَبَ — بِفَضْلِ نُبَاحِهِ — وَرَبِحَ! كَمْ مِنَ النَّاسِ بَلَّغُوا الْمَجْدَ بِبَاطِلِ الْأَقْوَالِ، وَكَاذِبِ الْأَصَالِيلِ! اِحْتَالُوا بِذَلِكَ لِيُصْبِحُوا كَأَنَّهُمْ أَعَزَّةٌ، كَمَا فَعَلَ «رَأْسُ الْوَزَّةِ»!

(٥) الْجَزَاءُ الْعَادِلُ

إِزْدَادَ إِحْسَاسِي بِاِقْتِنَاعِ «أَبِي عَامِرٍ»، وَهُوَ إِلَى قَوْلِي مُنِصْتُ. رَأَيْتُ أَنْ أُسْتِمِرَّ عَلَى هَذَا النَّحْوِ مِنَ الْحَدِيثِ، لِيَقْوَى أَطْمِئِنَانُهُ.

قُلْتُ لَهُ: «أَنْتَ جَدِيرٌ بِارْتِضَاءِ مَا نَالَكَ مِنْ عَدْلِ الْجَزَاءِ. مَا ظَلَمَكَ «رَأْسُ الْوَزَّةِ»، وَلَا عَبَنَ. مَا حَقَقَ عَلَيْكَ، وَلَا صَغَنَ. إِنَّكَ — بِمَشُورَتِكَ الْجَائِرَةِ — لَمْ تَرَ فِي ظَلَمِ غَيْرِكَ مِنْ بَأْسٍ. لَا عَجَبَ إِذَا ظَلَمْتَ نَفْسَكَ، مَعَ مَنْ ظَلَمْتَ مِنَ النَّاسِ. لَا تَجَزَعُ — يَا «أَبَاعَامِرٍ» — مِنْ سُنَّةِ سَنَنْتَهَا، وَخُطَّةِ نَهَجَتَهَا. لَكَ أُسْوَةٌ فِي شَبِيهِ لَكَ قَدِيمٍ، حَادٍ عَنِ الْنَهْجِ الْقَوِيمِ. عَامِلُهُ ابْنُ عَمِّهِ بِمِثْلِ مُعَامَلَتِهِ، وَكَفَافُهُ مِنْ جِنْسٍ مُكَافَأَتِهِ. أُسْرِعَ إِلَى مُجَازَاتِهِ ظَلْمًا بِظَلْمٍ، فَلَمْ يَجْرَ عَلَيْهِ فِي الْحُكْمِ. صَرَخَ الرَّجُلُ بِاِكْبًا مُعْوَلًا، كَمَا صَرَخْتَ أَنْتَ شَاكِيًا مُوَلُولًا. أَرَى مِنَ الْخَيْرِ لِي وَلَكَ، أَنْ أَقْصِ قِصَّتَهُ الْعَجِيبَةَ عَلَيْكَ. سَوْفَ تَتَجَلَّى لَكَ فِي قِصَّةِ هَذَا الشَّيْبِيِّ، عِبْرَةٌ وَمَوْعِظَةٌ وَنَنْبِيهٌ. فِي سَمَاعِكَ لَهَا — إِلَى جَانِبِ ذَلِكَ — عَزَاءٌ وَتَسْلِيَةٌ وَتَرْفِيهٌ.»

(٦) الشَّيْبِيُّ الدَّمِيمُ

بَدَأَ عَلَى «أَبِي عَامِرٍ» تَطْلُعُهُ إِلَى سَمَاعِ حِكَايَةِ الشَّيْبِيِّ. غَرَابُ الْقِصَصِ تَبَعَتْ عَلَى الْإِنْتِبَاهِ، وَتَجَدَّدُ الشُّوقِ إِلَى السَّمَاعِ.

قُلْتُ لَهُ: «كَانَ فِي بَلَدِنَا — هَذَا — سَيِّدٌ عَظِيمُ الشَّانِ. كَانَ يَعْيشُ فِيهِ قَبْلَ أَنْ تُوَلَّدَ أَنْتَ، أَوْ أَوْلَادَنَا، بِأَرْزَامٍ. عُرِفَ بِسَدَادِ الرَّأْيِ وَنَفَازِ الْبَصْرِ، وَرَفَعَةِ الْقَدْرِ وَجَلَالَةِ

مُعَلِّمُ النَّبَاحِ

الْخَطْرِ. أَصْبَحَ لِسْمُو مَكَانَتِهِ، وَسَعَةَ حَيْلَتِهِ، إِمَامًا لِحِمَايَتِهِ، وَزَعِيمًا لِعَشِيرَتِهِ. شَدَّ مَا كَانَتْ تَلْجَأُ إِلَيْهِ، وَتَجَعَلَ مُعْوَلَهَا — بَعْدَ اللَّهِ — عَلَيْهِ. تَلَوْدُ بَكْنَفِهِ إِذَا أَلَمَّتْ بِهَا الْحَوَادِثُ، وَدَهَمَتَهَا الْخُطُوبُ وَالْكَوَارِثُ. تَسْتَطْلِعُ فِكْرَهُ كُلَّمَا تَعَقَّدَتْ أُمُورُهَا، وَضَاقَتْ بِحَادِثَاتِ الدَّهْرِ صُدُورُهَا. تَتَفَقَّدُهُ عِنْدَ الْبِأْسَاءِ، كَمَا تَتَفَقَّدُ نَحْنَ الْبِدْرِ فِي اللَّيْلَةِ الظُّلْمَاءِ. تَهْتَدِي — عَلَى الدَّوَامِ — بِهَدْيِهِ الصَّائِبِ، وَتَسْتَنْبِرُ بِرَأْيِهِ الثَّاقِبِ. مِنْ سُوءِ حَظِّهِ أَنَّهُ حَادَ عَنِ السَّدَادِ، وَتَنَكَّبَ سَبِيلَ الرَّشَادِ. دَفَعَتْهُ الْأَنَانِيَّةُ إِلَى أَنْ يُعَامَلَ ابْنُ عَمِّهِ مُعَامَلَةً غَادِرَةً. ارْتَضَى السَّيِّدُ لِنَفْسِهِ — عَلَى غَيْرِ عَادَتِهِ — حُطَّةً مُلْتَوِيَةً مَآكِرَةً.»

(٧) السُّنَّةُ السَّيِّئَةُ

قَالَ «أَبُو عَامِرٍ»: «أَبِيحُ لِنَفْسِهِ مَسَلَكَ الْغَدْرَ مَعَ ابْنِ عَمِّهِ؟! قُلْتُ: إِنَّجْرَافُ النَّفْسِ يُسَهِّلُ عَلَيْهَا الْإِسْتِهَانَةَ، وَالتَّفْرِيطَ فِي الْأَمَانَةِ. فِي هَذِهِ الْحَالِ، يَتَسَاوَى عِنْدَهُ الْغَدْرُ بِالْقَرِيبِ، وَغَيْرِ الْقَرِيبِ! كَانَ جَزَاءُ السَّيِّدِ مِنْ ابْنِ عَمِّهِ، أَنْ كَافَأَهُ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِ. قَابَلَ السَّيِّءَ مَنْ غَدَرَهُ وَخَيَانَتِهِ، بِمِثْلِ السَّيِّءِ مَنْ فَعَلْتَهُ. صَرَخَ السَّيِّدُ — عَظِيمُ قَوْمِهِ — كَمَا صَرَخَتْ، وَشَكَا كَمَا شَكَوَتْ. انْطَلَقَ يَسُبُّ خِصْلَةَ الْأَنَانِيَّةِ وَالْأَنَانِيِّينَ، وَيَلْعَنُ خُلُقَ الْغَدْرِ وَالْغَادِرِينَ. أَتَعْرِفُ كَيْفَ كَانَ جَوَابُ ابْنِ الْعَمِّ لِذَلِكَ السَّيِّدِ الْعَظِيمِ؟ أَعْرَضَ عَنْهُ فِي اسْتِكْبَارٍ، وَأَغْلَظَ لَهُ الْقَوْلَ فِي أَحْتِقَارٍ. أَنْشَدَهُ هَذَا الشُّعْرَ، يَصِفُ حَالَهُ وَحَالَ جُنُوحِهِ إِلَى الْغَدْرِ:

وَكُنْتَ إِمَامًا لِلْعَشِيرَةِ تَنْتَهَى
فَلَا تَجْرَعَنَّ مِنْ سِيرَةٍ أَنْتَ سِرَّتَهَا
إِلَيْكَ، إِذَا ضَاقَتْ بِأَمْرِ صُدُورُهَا.
فَأَوَّلُ رَاضٍ سُنَّةً: مَنْ يَسِيرُهَا!

(٨) يَقِظَةُ الضَّمِيرِ

اسْتَيْقَظَ ضَمِيرُ «أَبِي عَامِرٍ» بِمَا صَرَبْتُ لَهُ مِنْ جُمْلَةِ الْأَمْثَالِ. تَجَلَّى لَهُ — عِنْدِيذٍ — طَرِيقُ الصَّوَابِ، فَارْعَوَى عَنْ بَاطِلِهِ وَأَنَابَ. تَبَيَّنَ لَهُ سُوءُ مَا قَدَّمَ لـ «رَأْسِ الْوَزَّةِ» مِنْ تِلْكَ الْمَشُورَةِ. انْفَرَجَتْ أَسَارِيرُهُ وَتَطَلَّقَ مُحْيَاهُ، وَتَجَلَّتْ أَمَارَاتُ الْبَشْرِ عَلَى سِيمَاهُ.

عَنْدِيذٍ قَالَ لِي «أَبُو عَامِرٍ»: «مَا أَعْدَلَ قَضَاءَكَ، وَأَصَحَّ آرَاءَكَ. شُكْرًا لَكَ عَلَيَّ مَا بَدَّلْتَهُ مِنْ رِعَايَةٍ، وَأَسَدَيْتَهُ مِنْ نُصْحٍ وَهَدَايَةٍ. أَنْتَ بَصَّرْتَنِي بِمَا أَصَابَنِي مِنْ عَيْبٍ، وَمَا أَقْتَرَفْتَهُ مِنْ ذَنْبٍ. صَدَقَ الْقَائِلُ: «الْمَرْءُ لَا يَرَى عَيْبَ نَفْسِهِ، بَلْ يَرَى عَيْبَ سِوَاهُ!»! مَا أَحْسَنَ قَوْلَ مَنْ قَالَ: «الصَّاحِبُ لِصَاحِبِهِ: نَعَمُ الْمَرْأَةُ!»! مَا أَجْدَرَكَ بِالثَّنَاءِ وَالتَّكْرِيمِ، لِأَنَّكَ هَدَيْتَنِي إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ! فَتَحَّتْ عَيْنِي بِحَدِيثِكَ الْبَارِعِ الْعَظِيمِ، عَلَى الْمَسْلِكِ الصَّائِبِ الْقَوِيمِ. صَبَرْتَ مَعِيَ صَبْرًا جَمِيلًا، لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا صَدِيقٌ حَمِيمٌ.»

سَمِعْتُ هَذَا مِنْهُ، فَاِنْشَرَحَ مِنِّي الصَّدْرُ، لِمَا عَمِلْتُ مِنْ خَيْرٍ.

إِبْنَهَجْتُ أَنَا، كَمَا أَبْتَهَجَ هُوَ، بِانْكَشَافِ الضَّرِّ، وَصَلَاحِ الْأَمْرِ.

يُجَابُ مِمَّا فِي هَذِهِ الْحِكَايَةِ عَنِ الْأَسْئَلَةِ الْآتِيَةِ

الفصل الأول

- (س١) بماذا اتَّصَفَ «أَبُو عَامِرٍ»؟ ولماذا قَدِمَ عَلَى جَارِهِ «جُحَا»؟
- (س٢) ماذا شَاعَ عَنِ «رَأْسِ الْوَزَّةِ»؟ ولماذا لَجَأَ إِلَى حِيلَتِهِ؟
- (س٣) ماذا فَعَلَ «رَأْسُ الْوَزَّةِ» لِيَهْرَبَ؟
- (س٤) ما الاتِّفَاقُ بَيْنَ «أَبِي عَامِرٍ» وَصَاحِبِهِ؟
- (س٥) ما اقْتِرَاحُ «أَبِي عَامِرٍ»؟
- (س٦) ما هُوَ مَوْقِفُ الْوَالِي؟

الفصل الثاني

- (س١) كَيْفَ تَمَّ تَنْفِيذُ الْاِقْتِرَاحِ؟
- (س٢) كَيْفَ تَنَازَعَ الدَّائِنُونَ؟
- (س٣) ماذا صَنَعَ وَكَيْلُ الدَّائِنِينَ؟ وما مَوْقِفُ «رَأْسِ الْوَزَّةِ»؟
- (س٤) ما مَوْقِفُ «رَأْسِ الْوَزَّةِ» مِنَ الْوَالِي؟ وماذا كَانَتْ الْعَاقِبَةُ؟
- (س٥) لماذا أَطْلَقَ الْوَالِي «رَأْسَ الْوَزَّةِ»؟ وماذا تَبَيَّنَ الْوَالِي آخِرًا؟

مُعَلِّمُ النَّبَاحِ

- (س٦) بماذا حَكَمَ الوالى؟ وماذا كانت النهاية؟
(س٧) كيف تصوّر «جُحا» صنيع «رأس الوزّة» مع «أبى عامر»؟
(س٨) ما نهاية موقف «رأس الوزّة»؟

الفصل الثالث

- (س١) ما تفسير «جُحا» لما حدّث؟
(س٢) ماذا توقّع «جُحا»؟
(س٣) من المسئول عن الغدر؟
(س٤) ما نتيجة العهد مع الذئب؟
(س٥) ماذا صنع «جُحا» للاطمئنان؟
(س٦) ما موقف السيّد من ابن العمّ؟ وما موقف ابن العمّ منه؟
(س٧) بم وصف «أبو عامر» «جُحا»؟ ولماذا أبتهاجا معا؟